اللحظ الدال على الضمير، درى تراتيب الكلام وأسراره كما درى تعاليق المعانى وأسبابها إلى غير ذلك مما يكمل الآلة ويشحذ القريحة نراه لا ينظر إلا بعين البصيرة ولا يسمع إلا بأذن النصفة ولا ينقد إلا بعين المعدلة، فحكمه الحكم الذى لا يبدل، ونقده النقد الذى لا يغير.

واعلم أنه قد يعرف الجيد من يجهل الردىء، والواجب أن تعرف المقابح المتسخطة كما عرفت المحاسن المرتضاه، وجماعها إذا أجملت أنها أضرار ما بيناه من عمد البلاغة وخصال البراعة فى النظم والنثر، وفى التفصيل كأن يكون اللفظ، وحشياً أو غير مستقيم أولا يكون مستعملا فى المعنى المطلوب، فقد قال عمر رضى الله عنه فى زهير لا يتتبع الوحشي ولا يماطل الكلام، أو يكون فيه زيادة تفسد المعنى أو نقصان أولا يكون بين أجزاء البيت التئام أو تكون القافية قلقة فى مقرها أو معيبة فى نفسها أو يكون فى القسم أو فى التقابل أو فى التفسير فساد أو فى المعنى تناقض أو خروج إلى ما ليس فى العادة والطبع، أو يكون الوصف غير لائق بالموصوف أو يكون فى البيت حشو لا طائل فيه إلى غير ذلك مما يحصل لك تأملك جمل المحاسن وتفصيلها وتتبعك مما يضادها وينافيها وهذا يقين قريب وأنا قلت هذا لأن ما يختاره الناقد الحاذق قد يتفق فيه ما لو سئل عن سبب اختياره إياه وعن الدلالة عليه لم يسكنه فى الجواب إلا أن يقول هكذا قضيته طبعى أو ارجع إلى عشيرى من له الدربة والعلم بمثله فإنه يحكم بمثل حكمى وليس كذلك ما يستذله النقد أو ينفيه الاختيار لأنه لا شيء من ذلك إلا ويمكن التنبيه على الخلل فيه وإقامة البرهان على رداءته فاعلمه.

وأما تمنيك معرفة السبب فى تأخر الشعراء عن رتبة الكتاب البلغاء. . والندر فى قلة المترسلين وكثرة المعلقين والعلة فى نباهة أوئلك وخمول هؤلاء، ولماذا كان أكثر المعلقين لا يبرعون فى إنشاء الكتب، وأكثر المترسلين لا يفلحون فى فرص الشعر، فإنى أقول فى ذكر فصل من ذلك بما يحضر والله ولى توفيقى.وهو حسبى وعليه توكلى :

واعلم أن تأخر الشعراء عن رتبة البلغاء موجبه تأخر المنظوم عن رتبة المنثور عند العرب لأمرين :

أحدهما أن ملوكهم قبل الإسلام وبعده كانوا يتبجحون بالخطابة